المحاضرة رقم 04: السيرة الذاتية في التراث الغربي

مقدمة : ان الحديث عن مدى تواجد السيرة الذاتية في التراث الغربي موضوع مهم من أجل تحديد مدة أولية أو أسبقية هذا الشكل التعبيري عند الغرب و البداية كشاهد تستوقفنا عند أهم شخصية نقدية لإحسان عباس الذي له الدراية الكافية والتجربة الحية عن تقصي تراجم الغرب القديمة حيث ينفي أن للدول الأوربية تراجم قديمة وفي المقابل تواجد عدد مكثف من التراجم المتنوعة عند العرب قديما والتي ظهرت في وقت مبكر خلال القرن الثاني الهجري ولكن هناك إشارات جاءت على شكل ضعيف لتبين مدى التشتت والضعف الذي ظهر عليه مظهر السيرة عند الغرب ومثال ذلك أن السيرة الغربية اكتفت بوصف بعض الكرامات العقائدية مثل كرامات القديسين وحادت عن الوصف الواقعي والشخصي للمترجم له من أجل تقديم تجارب حية للاستفادة منها وكانت مهمتها قد اقتصرت على الوعظ والإرشاد ويؤكد **فيليب لوجون** مدى تواجد السيرة الذاتية في التراث الغربي القديم وهو موغل في صلب الحضارات القديمة قائلا: "إنّ الأبحاث ذات النمط السلالي التي تعزل عنصرًا ملائمًا في الوقت الراهن من أجل تتبّع آثاره بالرجوع إلى التاريخ لها إذن طابع وهمي" [1].

وبالرغم من هذا التأكيد على يد أحد الرواد في مجال السيرة الذاتية ومدى وجودها وأوليتها في التراث الغربي الا أن الفارق بينها وبين السيرة العربية واضح من حيث الخصائص فكلتاهما تختلف عن الآخرى فمثلا نجد السيرة الذاتية عند الغرب قد اعتمدت الأوتوبيوغرافيا الغربية في وصف العواطف الدينية مثلما هو الحال عند القدسين كذلك استغلت في سير العظماء و الملوك ولكن هذه السيرة الذاتية الغربية تغيرت مع عصر النهضة وأصبحت تقتصر على تأبين الميت و مع اختفاء الصيغة الدينية التي كانت تصبغ سير القدامى الغرب و حلت محلها الروح الديمقراطية المشحونة بالأمل وخير شاهد قول دانيال مندلسون يصف هذه القفزة النوعية في انتقال مواضيع السيرة الذاتية الغربية : «**اللحظة حاسمة في تطوّر كتب السيرة المتعلّقة بالمعاناة والخلاص من أصولها الدينية إلى قمّة الانحطاط والتدنيس كما نشهد اليوم، وقعت عندما تراجع الإيمان لصالح عصر العقل**»[2].

وصفوة القول : تعتبر السيرة الذاتية في الغرب سيرة دينية في مجملها لكن هذا لم يبقى على حاله، بل تغيرت نتيجة التطور العالمي الجديد وأصبحت مواكبة لمستجدات الحياة ومتطلباتها محاكية لما هو حاصل في العالم بالإضافة الى أنها أضحت مصدر رزق للكثيرين ممن يحسنون القول والكتابة في الترجمة عن أنفسهم

1-فيليب لوجون: السيرة الذاتيية، الميثاق والتاريخ، ص73.

2-دانييل مندليسون وآخرون: قضايا أدبية، نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية، تر: حمد العيسى، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2011، بيروت، لبنان، ص150.

«و**غدت كتابتها مربحة تدرّ على صاحبها مالًا وفيرًا... فمن استطاع أن يكتب حياته يومئذٍ بطريقة تبهر القرّاء أو تهزّهم أو تبعث المتعة في نفوسهم، ضمن لنفسه ربحًا جزيلًا»** [1]. ومن بين أحسن من وثق للسيرة الذاتية المتميزة من حيث الابداع في الكتابة وحسن التنميق ما جاء به جونسون والذي يصفه احسان عباس: قائلا:«**وقد وضع جونسون في "سير الشعراء"**[*]**المثال الذي يحتذى به في كتابة السيرة، بانيًا كل ذلك على أساس من البيان المحكم الرصين، تكتنز الجملة منه حقائق كثيرة قد تشرح في صفحات... فإيثار الصدق والصراحة هو الذي حاول جونسون أن يحقّقه في كتابة السيرة، وحاول معاصروه أو من جاؤوا بعده أن يترسّموا فيه خطاه، لأن جونسون كان أكبر شخصية أدبية في عصره» (1. بالإضافة الى مثال ثاني ورد** لستراتشي في كتابة الموسوم **بالسيرة** وهو من أشهر الكتب السير ذاتية حديثا

وفي ظل هذا الرواج والتميز الذي حمل على عاتقه مهمة وصف حياة الابطال والاهتمام بحياتهم الشخصية ولان الحرب كانت سببا في التحفظ عن السير التاريخية و الدينية كونها تمس بتاريخ الامة ومعتقداتها الا ان السيرة الذاتية واصلت نموها وتقدمها بالرغم من الظروف السياسية المانعة للتقدم والتطور ولاسيما فترة الحرب العالمية الثانية التي وصلت فيها السيرة الذاتية وخير دليل على البدايات الأولى للسيرة الذاتية عند الغرب "اعترافات القديس أوغستين" التي سبقت الإشارة إليها، وهي باب مفتوح واضح المعالم على طبيعة مواضيع السيرة الذاتية التي كانت قريبة الى تعرية النفس البشرية كذلك نجد سيرة من نوع آخر تمجد وتنبش في تلك الصراعات الفكرية كما هو الحال عند **سيرة ستيوارت ميل**

وهذا التنوع جلب الناس الى الالتفاف حول السيرة الذاتية لأنها بمواضيعها الإنسانية ولغتها الماتعة و تعريتها للنفس كانت قريبة الى الشخصيات المهمة والمميزة والتي كانت مثال يحتذى به هذا ما جعل رواجها بين الناس واضح وان خدمتها للجانب الإنساني غاية كبرى.

نقد:

فكل هذا الكلام يؤكد على نشأة السيرة الذاتية في الادب الغربي، أما كل من جورج ماي و شكري المبخوت لا يعترفان بوجود أصول لهذا الفن في الادب العربي حيث ان شكري المبخوت ينقل قول جورج ماي **بان" السيرة الذاتية شكل من اشكال التعبير خاصة بالثقافة الغربية ويعلق عليه بقوله :" وكل من يكتب سيرة ذاتية من غير الغربيين انما هو مقلد لهم ، متأثر بثقافتهم"**[2]

ويعتبر هذا الكلام غير دقيق وغير موضوعي لان السيرة الذاتية وجدت في الادب العربي منذ القديم أي خلال القرن الأول الهجري أي السابع الميلادي و في العصر الحديث تأثر كتاب السيرة الذاتية بما جاء في الادب الغربي لكنهم لم ينسلخوا عن تراثهم و احسن دليل وشاهد عن ما اخذنا من **الموسوعة البريطانية من ان اول نماذج السيرة الذاتية** ظهر عند الغرب **في القرن الخامس عشر الميلادي** فإننا سنتوصل الى انها نشأت عند العرب قبل الغرب و

1- إحسان عباس: فن السيرة، ص 40.

[2] : جليلة طريطر : كتاب مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (بحث في المرجعيات).

هذا رأي وارد عند بعض الباحثين ، منهم **لويس بوزويه** الذي يقول : "ربما كتاب **"الاعتبار"** لأسامة بن منقذ في القرن السادس الهجري أي الثاني عشر الميلادي ، وكتاب **التعريف لابن خلدون** في أواخر القرن الثامن الهجري أي الرابع عشر ميلادي اقرب اثرين في القرون الوسطى الى الفن المذكور بمعناه الاصطلاحي

_ فهدا الفن لم ينتشر كثيرا في الادب الغربي الا مؤخرا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ومن الذين يؤيدون وقالوا بهذا الراي **هو محمد عبد الغني حسن** الذي يقول:" وظلّت أوروبا عقيما في كتابة التراجم منذ عصور الظلام التي خيمت عليها في القرون الوسطى، على حين أخذ التاريخ الإسلامي يأخذ مكانه في الوجود، وأخذت التراجم تظهر منذ القرن الثاني للهجرة، ثم أخذت على توالي العصور تكثر أنواعها ويتضخم عددها"[1]

وخلاصة الدرس : نختتمها برأي محمد عبد الغني حسن إذ يقول وأجد نفسي أميل الى هذا الرأي الذي يرى أن السيرة الذاتية نشأت عند العرب قبل الغرب، لكنني لا أنكر أنها تطورت في العصر الحديث عند الغرب قبل العرب.

[1] ينظر: تهاني عبد الفتاح : فدوى طوقان و جبرا إبراهيم جبرا واحسان عباس تموذجا تهاني عبد الفتاح شاكر ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت، لبنان ط1 2002م، ص 30_31_32